العواطف الجريحة

منذ أكثر من عامين (مايو ١٩٩٤) كنت أشارك فى مؤتمر عقد بمدينة براج (عاصمة الجمهورية التشيكية) عن التفاهم بين الشرائع الثلاث : « اليهودية والمسيحية والإسلام » ، وكان من ضمن المشاركين أستاذ يهودى بارز يقيم فى القدس ، وأستاذ يهودى مشهور يقيم فى بودابست (المجر) . وخلال النقاش الذى تلى إلقاء المحاضرات عقّبت بأن التفاهم الإنسانى الرفيع لا يكون بين تلك الشرائع الثلاث فقط ، وإنما ينبغى أن يمتد إلى كل الشرائع القائمة فى العالم حالا (حاليا) ، كما أنه لابد وأن ينتشر إلى العقائد والشرائع التى كانت فعّالة قبل اليهودية ، ومنها الديانة المصرية القديمة ، وتعاليم إخناتون (١٣٦٩ – ١٣٥٣ ق . م) التى كان لها أثر بعيد فى الاعتقاد التوحيدى وفى الفكر اليهودى . ولم يردّ على تعقيبى ذاك أحد من الأستاذين المذكورين ، مع أن أولهما – والذى هو من القدس – كان دائب المساجلة معى طوال المؤتمر ، وإنما رد شخصٌ آخر من يهود براج ، ردًّا فاترًا غير علمى .

بعد انتهاء جلسة المؤتمر توجهنا جميعًا إلى مطعم مجاور لتناول وجبة العشاء . ولكى أتجنب أى حرج فقد اخترت مائدة بعيدة

وجلست إليها وحدى . وإن هى إلا لحظات حتى دخل الأستاذان إلى المطعم وجالا بأعينهما يبحثان عنى ، فلما رأيانى حضرا إلىّ مسرعين وقال أولهما : على الرغم من الحقائق التى ذكرتها فإنه من دواعى سرورنا أن نشترك معك فى تناول العشاء :

(Despite the facts you mentioned, it is our pleasure to join you while getting the dinner).

قلت لهما وقد جلسا إلى المائدة : مادام ماقلته حقائق (Facts) فلماذا عبارة : على الرغم من ذلك Despite، التى قد تفيد أن خطأً ما قد حدث ، وأنكما تتجاوزان عنه .

قالا معًا : مع أنها (even) حقائق ، فإن ذكرها مؤلم . سكتّ ولم أعقّب — هذه واحدة ! .

فى شهر ديسمبر الماضى (١٩٩٥) كنت أغشى أحد مسارح القاهرة ، فقابلنى مدرس شاب من هيئة التدريس بجامعة القاهرة ، يستكمل دراسته فى لندن ، وقال لى : إننا جميعًا (أى هو وزملاؤه) نتابع أعمالك فى لندن ، لكن بعضنا يُصدم بشدة من بعض ما يرد فيها من أفكار . قلت له : وهل فى هذه الأفكار المصادمة خطأ ؟ قال : أبدًا ، بل إنها مقنعة جدًا ولا أحد يستطيع الرد عليها علميا ، ولم يرد عليها أحد بأسلوب علمى ، لا تجريح فيه ولاسباب . قلت له : وأين الخطأ إذن ؟ قال : إنك تتناول مسائل دقيقة بأسلوب عقلانى يحطم بالمنطق كثيرًا مما استقر فى الوجدان ، ويؤدى ذلك إلى اقتناع بما تكتب وجراح فى العواطف

التى تختلط بها الأفكار القديمة وقد صارت حطاما . قلت له : ليس الخطأ إذن فى منهج عقلانى ولا فى منطق علمى ، لكن الخطأ فى عواطف انطوت على معتقدات خاطئة وانغلقت دون أى فهم سليم لها أو تحليل علمى لأسسها ومضامينها . قال : هذه هى المشكلة ، ولكن ماذا نفعل فى عواطفنا ؟ — هذه ثانية ! .

ذات يوم كنت أتناقش مع توفيق الحكيم فى روايته « عودة الروح » فقلت له : إنك تركن إلى العقل والمنطق فيما تكتب وتقول ، لكنك أهديت روايتك تلك إلى حاميتك السيدة زينب ، فهل تعتقد حقيقة أن السيدة زينب هى حاميتك أم أن الله الذى يحميك ويحمى غيرك ؟ قال : الله بالطبع هو الحامى ، وما السيدة زينب إلا بشر انتقلت إلى رحمة الله منذ مئات السنين . قلت : مادام هذا رأيك فلم كتبت ما كتبت فى الإهداء ؟ قال : ذلك إهداء صدر عن عاطفتى ، فلقد كنت أسكن مع أعمامى فى شارع فى حى السيدة زينب وتأثرت عواطفى بالمعتقدات الشعبية فى الإحتماء بالأولياء ، مع أنى أعرف أن هذا يخالف صحيح الإسلام . قلت له :معنى ذلك أن لك مستويين فى الفهم والتصرف ، أحدهما عقلانى وثانيهما وجدانى . قال : تماما ، فأنا مزدوج الطبيعة ؛ لعقلى مجال يدور فيه ، ولعاطفتى مجال تتحرك خلاله — هذه ثالثة ! .

، مواقفات ثلاث حدثت مع أشخاص مختلفين ، وفى ظروف متغايرة [illegible] كثيرا من العلماء والأدباء والمثقفين يعيشون فى [illegible]

أحدهما : عقلانى يقوم على الفكر المستقيم والواقعات الثابتة والفهم العلمى والمنطق العقلى .

وثانيهما : وجدانى تختلط فيه الموروثات الاعتقادية بالتراث الشعبى (الفولكلور) بالمشاعر الغامضة بالعواطف الجامحة بالميول البُدائية بالتعميمات القاصرة ، فتكوّن خليطًا متمازجًا يصعب تمييز بعضه عن بعضه أو تحديد وضع فيه من وضع آخر .

ومع أن هؤلاء العلماء والأدباء والمثقفين قد يدركون بأنفسهم أو بعد قراءات لهم ، حقيقة الازدواجية التى يعيشون فيها ، والتى ربما تُحدث قسمة حادة فى شخصياتهم واضطرابًا خطيرًا فى مفاهيمهم ، فإنهم لا يستطيعون تجاوز ماهم عليه من ازدواجية ، ولايقدرون على الوصول إلى توحد سليم لشخوصهم وعقولهم ؛ لضغط الأوضاع الاجتماعية ولو كانت خاطئة ، وخطر الموروثات الاعتقادية وإن كانت فى حاجة إلى جلاء ؛ هذا فضلا عن الافتقار إلى المعلومات المتكاملة والإرادة القوية التى تستطيع الانفلات من جاذبية القديم المستقر فى العواطف ، كما يتحرر الصاروخ من جاذبية الأرض الشديدة وينطلق إلى الفضاء السحيق .

ونتيجة لهذا القصور ، فإن الأغلب الأعم من المتعلمين وحملة الشهادات العليا ، يعيشون حياة مزدوجة ، ويملكون عقلية منقسمة ، ولهم دائما شخصية منشطرة . فهم بما يحملون من إجازات دراسية يصبحون مهرة فى صناعة ما Trained ، أو يتحولون إلى فنيين فى

عمل بذاته Technocrats ؛ بينما هم خارج نطاق الصنعة وبعيدًا عن مجال الحرفة يسيرون فى عماء تام ، وظلام دامس ، وغموض شديد ؛ بعواطف مختلطة ، ومشاعر مضطربة ، وأفكار متداخلة ، ومعتقدات مهوشة ، وممارسات مشوشة . ومن ثم فإن بعضهم على الأقل ، قد يكون شديد المهارة فى جانب الصنعة ، بالغ الضحالة فى ميدان الحياة ؛ يتصرف بعقلانية فى مجال ، ويتصرف بعبثية فى مجال آخر ؛ يحكمه العقل حين يعمل ؛ وتستبد به العواطف وهو يعيش ، يحتمى بالمنطق وهو يبحث ، ويحتفى بالخرافة فى حياته الخاصة ومعتقداته العامة .

أما الوسط من الناس ، ومن دونهم ، فإنهم جميعًا يعيشون الجانب المضطرب وحده من حياة المتعلم . ففى أعماق نفوسهم وفى كوامن ذواتهم ، خليط مهزوز باهت من شظايا فكرية وفسيفساء عاطفية وثوابت خرافية . وإذ كان هذا الخليط العاطفى هو الذى يهيمن عليهم ويحكم تصرفاتهم فإنهم يركنون إليه ويهتفون به ، ولا يقبلون أبدًا أن يغيّر فيهم أحد هذه المنظومة المضطربة المختلطة ، لأنهم لا يتحملون مواجهة الحقيقة ، ولا يقدرون على تمييز الصواب ، ولا يطيقون مسئولية اتخاذ قرار . فإذا حدث ونبههم إنسان عاقل إلى ما فى كوامنهم من غموض وما فى نفوسهم من خرافة وما فى عقولهم من تخليط ، ثاروا عليه هو ، ولم يثوروا للحق أو ينتصروا للصواب .

وفى هذا الصدد تُروى قصة رمزية ذات دلالة . إذ يقال أن

صديقًا مال على صديقه ينبهه إلى أن زوجه تخونه ، ويطلب منه أن يراقبها على نحو معين ليتأكد من حقيقة الخيانة . فعل الزوج ما نصحه به صديقه وراقب زوجه ، فثبت له أنها تخونه فعلا . ماذا كان تصرفه ؟ وكيف يكون التصرف السوىّ ؟ أن يفترق الزوج عن زوجه ، بالطلاق أو غيره ، أو أن يحاول تقويمها إن لم يكن يريد الطلاق . لكن الزوج المخدوع لم يفعل ذلك ، ولم يسلك أحد السبيلين المذكورين ، وإنما لأنه أعمى عن الحقيقة ولا يريد أن يبصرها إطلاقًا ، بل ربما كان مثله فى ذلك مثل الأعشى يكلّ بصره إن نظر إلى الشمس وتضطرب عينه إن هى رأت ضوءًا ، لذلك فإنه اتجه إلى صديقه الذى نصحه ، فلفت نظره إلى الحقيقة ووجه بصره إلى الضوء ، ثم قتله . بينما كان الصديق القتيل فى النزع الأخير سأل صديقه القاتل : لماذا فعلت ذلك ؟ لماذا تقتلنى ؟ قال الآخر : لأنى كنت مستريحًا فى حياتى هانئًا بعيشى ، حتى ولو كانت زوجى خائنة خادعة ، فلما بصَّرتنى بالحقيقة ، زلزلت كيانى وضيعت هنائى وقضيت على راحتى . قال المجنى عليه : أتقتلنى لأنى بصَّرتك بالحقيقة ؟ أو كنت تريد أن تحيا فى الخيانة والضلالة ؟ قال : كان فى الضلالة والخيانة سعادتى مادمت أجهلها . قال المجنى عليه : وجريرتى أنى بددت جهلك ؟ قال : نعم ، فبالعلم نغّصت على حياتى ولم أعد أطيق الحقيقة .

الصفاء الروحى والنقاء العقلى والجلاء النفسى لا يكون أبدًا

إلا نتيجة ، ثم سببًا ، لمعتقدات محددة واضحة ، ومعلومات صحيحة ثابتة ، وفهم سليم غير متلبّس ، ونفس مطمئنة غير مضطربة ، وروح شفافة لا شوائب فيها . أما عندما تكون المعتقدات قاصرة والمعلومات مختلطة والفهم متلبّس والنفس قلقة والروح عكرة ، فإن الفرد يكون بلا أى صفاء روحى أو نقاء عقلى أو جلاء نفسى ، تقوده أقوال خاطئة وتحكمه عواطف عليلة وتسيّره إشاعات كاذبة ؛ فإن نبهه أحد إلى ما هو فيه من علة وما هو عليه من تخليط ، اضطرب وثار ، وربما عَنُف ، على من يصْدُقه النصيحة أو يقدم صحيح الواقع أو يبين له سوىّ الفكر .

ومع ذلك ، وبسبب ذلك ، كان دور المفكرين والمصلحين دورًا خطيرًا عليهم أولا ، مادام من المحتمل ، بل ومن الراجح ، أن ينقلب عليهم من يعملون هم على هدايتهم وعلى إصلاح مافسد من أمورهم . لكن هذا الوضع الخطر لا يمكن أن يمنع المفكر الصادق والمُصْلح المتجرد من أن يقوم بدوره الذى قد يؤتى نتائج فى حياته ، وغالبًا مالا يطرح الثمار إلا بعد أمد بعيد ، قد يتجاوز مدى حياته .

رؤيتى لكثير من الناس ، على ما أنف بيانه فى الواقعات الثلاث ، وما يمكن متابعته فى مئات الوقائع المماثلة ، تقطع بأنهم أسارى فكر معتقدى خاطئ ، حبيسى تراث شعبى (فولكلور) مشوش مهوش ، رهينى عواطف مضطربة عليلة ؛ تنجرح من الرأى الصحيح ، وتلتهب من القول الحق ، وتنفجر من المعلومات

الصادقة ؛ وهذه كارثة للإنسانية ، بل ولعلها أكبر عائق يحول دون نموها الروحى ، وسموها العقلى ، وصحتها النفسية .

ولقد لاحظت ذلك فيما يتعلق بالمسلمين ، وبالفكر الإسلامى . فما يقال إنه صحوة إسلامية بدأ وسار على شعارات بلا مضمون ، وأقوال بغير دراسات ، وتخليط دون تصفية ، وتشويش دون تنقية . وكان من نتيجة ذلك أن تفسّخ ما يسمى بالصحوة خطأ إلى حركات سياسية وجماعات متطرفة وأعمال إرهابية ، لم تفد الإسلام ولا أفادت المسلمين ، بل فجرت بينهم القلاقل وكرست فيهم الاضطرابات وعممت فيهم التطرف وأشاعت بينهم الإرهاب . ولو أن ماحدث كان صحوة بحق ، لأدى إلى انتباه روحى ويقظة عقلية ونهضة علمية ودفعة حضارية ووثبة إنتاجية وموجة تعاونية ؛ كان يمكن أن نرى نتيجة لها جموع المسلمين ، والبلاد الإسلامية ، وقد صارت عنصرًا مهما من عناصر الحضارة العالمية تقدم الجديد من صياغتها الأصلية ، وتصبح مثلا عاليا للإنسانية جميعًا ، يتبعه الجميع أو على الأقل يقدّرونه ويحترمونه ، فلا ينفرون منه ولا يفزعون من أعماله ولا يتجمعون ضد ما يرون أنه إرهاب منه وتدمير للحضارة والإنسانية .

ثَمّ قانون كونى مهم ، مؤداه أنه إذا ماحدث اضطراب فى المجال الحيوى أو المجال الإنسانى أو المجال الاجتماعى ، فإن دلالة ذلك أنه قد وقع خطأ مضاد للنظام الكونى أو انحراف معاكس للوضع الطبيعى ، ولابد من تصحيح الخطأ أو تعديل

الانحراف حتى يعود المجال إلى الهدوء والسكينة . وبإعمال هذا القانون الكونى الدقيق ، يلاحظ أن الأيديولوجيا الإسلامية أو الإسلام السياسى الذى يقال عنه ، من قبيل المداورة والمناورة ، إنه صحوة إسلامية ، قد أحدث اضطرابًا شديدًا وأشعل فتنًا مستطيرة فى كل مكان ، سواء على المستوى الوطنى أو الإقليمى أو العالمى ؛ مما أساء إلى الإسلام كثيرًا وأضر ، وسوف يضر ، المسلمين ضررًا بالغًا ولآماد طويلة ؛ وهو الأمر الذى يقطع بأن هذا الإسلام السياسى خطأ مضاد للنظام الكونى وانحراف معاكس للوضع الطبيعى ، ولا مندوحة من تصحيح الخطأ ، كما أنه لا مشاحة من تعديل الانحراف حتى يعود إلى المسلمين ، وفى كل الأمكنة والأزمنة (الأوقات) ، مايُرجى من هدوء وما يؤمل من سكينة ؛ ذلك بأن حركات الإسلام السياسى تستغل الدين فى أهداف سياسية وتستعمل الشريعة فى أغراض حزبية ، كما أنها تتجاوز النظام الأخلاقى بمجرد شكليات حركية ، وتتخطى الحقوق الإنسانية بمحض هامشيات لا عقلانية ، وتتعدى الحقائق التاريخية برفع شعارات خاوية ؛ وهو مسلك يلفظه النظام الكونى ويرفضه الوضع الطبيعى ، لأنه لا يشجع المهارات العقلية ولا يؤكد المنظومات الأخلاقية ، ولا يوافق المسارات الأنسانية ؛ بل على العكس من ذلك ، فإنه يشحن النفوس بمشاعر متوترة ، ويعبئ الناس بعواطف ملتهبة ، ويدفع الطبائع إلى اتجاهات عدوانية .

وقد كان من نتيجة هذا الاتجاه الخاطئ أن تحول الناس فى كل أنحاء العالم ، حكومات وشعوبًا ، إلى مضادين للإسلام رافضين

للمسلمين ، ويرون أن الإسلام مرادف للإرهاب وأن المسلم مكافئ للإرهاب ؛ وهى أوصاف سيئة ، لن تتغير أو تزول إلى فترة طويلة جدًا . وعندما يواجه قادة ودعائيو جماعات الإسلام السياسى ، سواء فى مصر أو فى الخارج ، بسوء ما أدت إليه أعمالهم وخطر ما انتهت إليه أقوالهم ، فإنهم لا يرجعون إلى الصواب ولا يثوبون إلى الرشد ، وإنما يقولون إن الإسلام غير المسلمين ، بمعنى أن كل ما حدث طوال التاريخ وما يحدث الآن من تطرف وخمول وجهالة وبذاذة هو من عمل أفراد من المسلمين لا ينبغى أن ينسب إلى الإسلام أو أن يلصق به . وهذا قول شارد لا يصادقه عمل صائب ، لأنهم هم أنفسهم مازالوا يفعلون نفس الأفعال ويقولون نفس الأقوال التى ينكرونها على الإسلام ، مع انهم يفعلونها باسمه ويقولونها بلسانه . وهم فى كل فعل أو قول لا يوجهون خطابهم إلى العقل بل إلى المشاعر (وهو ما يطلق عليه اصطلاحا لاتينيا عاما ad hominem) . وإذا كان أغلب المسلمين قد اعتادوا الخطاب الموجه إلى المشاعر لا إلى العقل ، فإن أغلب الناس فى الخارج ، أو على الأقل من بيدهم مقاليد الأمور وتوجيه الرأى العام ، لا يقبلون خطاب العواطف ، وإنما يبحثون عن خطاب للعقل . وهم من ثم يتساءلون : إذا كان الإسلام غير المسلمين ، فكيف لم يتأثر المسلمون على مدى التاريخ بقيم الإسلام ومبادئه ؛ ولماذا لم تكن للإسلام فاعلية فى المسلمين ؟ وأين يكمن الخطأ : فى التعاليم الصائبة أم فى التطبيقات الخائبة ؟ ولماذا لا يتصل المسلمون

من تاريخ بُنى على أعمال خاطئة باعترافهم ، وتفاسير قامت على مفاهيم قاصرة بأقوالهم ، واجتهادات كانت أثرًا لظروف بدائية بروايتهم ؟ ولماذا يخلط المسلمون بين الإسلام والتاريخ ، بين الدين والفكر الدينى ، بين الشريعة والفقه ، بين السياسة والعقيدة ، فلا يضعون فاصلا دقيقًا بين الأشياء ، ولايحددون تحديدًا واضحًا بين الأمور ، ولا يميزون تمييزًا سليمًا بين الموضوعات ، ثم يلومون غيرهم إن أخذ عليهم هذا الخلط والتخليط ، أو عاب فيهم هذا الاضطراب والتغييم ! ؟ .

كما لاحظ غيرى ، فقد لاحظت ذلك ، وأدركت أن فى الواقع الإسلامى أيديولوجيا سياسية تستغل الدين فتؤدى إلى مشاعر ملتهبة وعواطف مشتعلة ، لا يمكن أن ينفلت منها أو ينقدها من كان منتميًا إلى تنظيماتها التى تستقطب الولاء وتستحوذ على العقل ، وإنما يقدر على الانفلات من الأسْر ونقد الخطأ ، من كان محايدًا ولاؤه للدين لا للأيديولوجيا ، وانتماؤه للإسلام لا للتنظيمات ، وعمله متجردًا لله لا للأجر الدنيوى أو المطامع المادية .

بدأ عملى بوضع تفرقة دقيقة بين الشريعة والفقة . فالشريعة – وفقًا لما جاء فى القرآن الكريم وفى معاجم اللغة العربية – تعنى الطريق إلى الله ، أو منهج الإسلام إلى الله سبحانه ؛ ولاتعنى القواعد القانونية أو النظم التشريعية . والطريق إلى الله فى الإسلام ، أو المنهج وفقًا له ، يتكون من ثلاثة مسارات : العبادات ، والمعاملات ، والأخلاقيات . العبادات محددة معروفة ، إما بيّنها

القرآن أو حددتها سنة متواترة عن النبى ﷺ ، كانت سنة فعلية ، إذ صلى الناس كما رأو النبى يصلى ، وحجوا واعتمروا وفقًا للشعائر التى اتبعها ، ورآها وفعلها المسلمون جميعًا فى عصر النبى ﷺ ، ثم تواترت عنهم جموعًا بعد جموع ، حتى العصر الحالى . والاجتهاد البشرى ، أى الفقهى ، فى مسائل العبادات محدود ؛ ولم تنشأ الحاجة إلى اجتهادات كثيرة إلا فى العصر الحالى حيث انتشر المسلمون فى كافة أنحاء المعمورة ، وفى مناطق لاتتساوى فيها أو تتقارب أوقات النهار وأوقات الليل ، أو مع ركوب الطائرات أو الصواريخ التى تمّحى معها مسائل الوقت أو تضطرب اضطرابا شديدًا ؛ كأن يغم على المسلمين المقيمين فى أقاصى الشمال من أوروبا وأمريكا أمر الصوم والصلاة حيث لاتتساوى الأوقات ، وإنما يمتد النهار ويتواصل فلا يكون هناك ليل فى شهور الصيف ، وينقلب الأمر تماما فى شهور الشتاء . كذلك فإن من يركب طائرة ، وخاصة تلك التى تفوق سرعتها سرعة الصوت ، يجد الوقت أمامه ممتدا ، بل قد يرجع إلى الوراء ، كأن يترك باريس الساعة ١٢ ظهرًا فيصل إلى نيويورك فى الساعة ٨ صباحًا من نفس اليوم . وهى أمور سوف تتزايد وتتفاقم مع ظهور طائرات الليزر ، التى تطير بأسلوب عمودى غير أفقى ، فتقطع المسافة بين أى موقعين على الأرض فى نصف ساعة . أما الأخلاقيات فأمرها معروف وقواعدها مفصّلة فى القرآن الكريم ، فضلا عن أن التقاليد الاجتماعية فى كل البلاد والمجتمعات الإسلامية تقوم عليها وتسير

بها . بقيت المعاملات ، وأحكامها فى القرآن قليلة ، أغلبها يتعلق بمسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ومواريث ووصية ؛ فضلا عن أربع عقوبات ، وحكم إجرائى فى إثبات الديون . هذه الأحكام ورد بعضها فى صورة كلية ، وورد أكثرها فى تفصيلات واضحة . وإذا كانت أحداث الحياة بعد وفاة النبى وانتهاء التنزيل قد تزايدت وتعقدت ، فقد نشط الفقهاء لوضع قواعد قانونية تحكم كافة المناحى المتجددة ، فنظموا أحكاما تتعلق بالتطليق عن طريق القاضى ، وأخرى تتصل بالوقف الأهلى ، وبنظام المحتسب ودعوى الحسبة ، وغير ذلك من مسائل . عملُ الفقهاء هذا يُعتبر عملا بشريًا ، فهو فقه الناس وليس شريعة الله ، وإن كان قد حدث خلط فى العقل الإسلامى فمزج الفقه بالشريعة ، ولم يميز بين مانزل من الله وما صدر عن الناس ؛ وهو غلط فاسد وخيم العواقب ، لأنه أدى إلى اعتبار آراء الناس القاصرة المحدودة وكأنها تنزيل من التنزيل . قد يقول البعض فى ذلك إن مايشرح الشريعة أو يفسرها أو يستنتج منها يُعَدّ شريعة كذلك ، وهو قول عليل ؛ ذلك لأن الفقهاء اختلفوا فيما بينهم حول كثير من المسائل الفرعية ووفير من التفسيرات القرآنية ، ومؤدى اعتبار مذاهبهم شرائع أن لا تكون هناك شريعة إسلامية واحدة ، وإنما تكون ثمَّ شرائع متعددة : الشريعة الحنفية (نسبة إلى أبى حنيفة) والشريعة المالكية والشريعة الشافعية والشريعة الحنبلية والشريعة الجعفرية (الشيعية) .. وهكذا ، وهو أمر يفرق الإسلام شيعًا ويحول الشريعة الموحدة إلى

شرائع مختلفة ، وقد تكون متضاربة فى بعض الحكام . يضاف إلى ذلك أن خلط الفقه بالشريعة يسقط على أعمال الناس القاصرة المحدودة ضربًا من القدسية وفرضًا من العصمة يحول دول تعديلها أو استبدال أخرى بها ، مما يجمد العقل الإسلامى ويعرقل تقدم المسلمين عموما .

تلى ذلك وضع تفرقة أخرى دقيقة بين الدين والفكر الدينى ، فالدين هو مجموع التعاليم والنصوص التى جاءت من الله أو التى ثبتت فى سنة (أو أحاديث) نبوية متواترة ؛ أما الفكر الدينى فهو الآراء والتفسيرات والتخريجات والأحكام التى صدرت عن الناس ، سواء كانوا أفرادًا معروفين أو كانوا أشخاصًا أو جماعات غير معروفة . والفكر الدينى بذلك قد يشمل صيغًا متعددة مختلفة للدين ، فالإسلام شريعة واحدة ولكن التفسير والتطبيق أوجد لها صيغًا مختلفة متعددة ، أظهرها — مثلا — صيغة الإسلام السنى وصيغة الإسلام الشيعى ، وبينهما اختلاف كبير . يضاف إلى ذلك أن التطبيق الدينى قد يتلبس ببعض التراث الشعبى فى كل بلد على حدة .. مثال ذلك أن ثمة حديث نبوى يحظر الصلاة فى مكان تدفن فيه جثة شخص ما ، أيًّا كان وضعه ، كما أن القرآن الكريم يجعل الشفاعة لمن يأذن له الله يوم القيامة : ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ سورة البقرة ٢ : ٢٥٥ ، ومع ذلك فإن الصيغة الإسلامية المصرية استوعبت التراث الشعبى وصارت تتضمن الصلاة فى مساجد دُفن بها بشر ، والتشفع

بهؤلاء بوصفهم أولياء الله أو باعتبارهم من أهل البيت ، وهو ما يحدث فى مساجد الإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيد أحمد البدوى والسيد إبراهيم الدسوقى وغيرهم .

التفرقة بين الدين وبين الفكر الدينى مهمة جدًّا لتخليص الدين من الشوائب الاجتماعية وتنقيته من الأساطير الشعبية ، أماالخلط فإنه يميّع المسائل ويضيّع جوهر الدين .

أعقب هذا وضع منهاج صحيح أصولى (من علم أصول الفقه) لتفسير آيات القرآن . فالقاعدة التقليدية تقوم على أن العبرة فى تفسير آيات القرآن هى بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، مع أن الواقع التاريخى وكثير من آيات القرآن يقطع بأن هذه الآيات نزلت وفقًا لأسباب اقتضتها ، وأن التفسير الصحيح لها لا يكون إلا أن يحدث تبعًا لأسباب التنزيل والظروف التاريخية التى استلزمت التنزيل . يؤكد ذلك أن الأخذ بالقاعدة التقليدية ، وتفسير القرآن تبعًا لعموم اللفظ ، يوجد تضاربًا وتناقضًا ينتفى تماما عند مراعاة تاريخية النصوص . ففى القرآن ﴿يأيها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أولياء بعض ومَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُم﴾ (سورة المائدة ٥ : ٥١) وفى القرآن أيضًا ﴿وطعَامُ الَّذينَ أوتوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ (سورة المائدة ٥ : ٥١) ، وفيه ﴿والْمحصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتوا الكِتَاب﴾ (سورة المائدة ٥ : ٥) ، أى أن القرآن يجيز للمسلم الزواج بكتابية وأكل طعام أهل الكتاب ، فكيف يمنع القرآن مسلما من

ولاية امرأة أجاز له الزواج بها ، وكيف تكون علاقة ابن الكتابية بأمه ، والأمومة ولاية ؟ إن ما يبدو تضاربًا وتناقضًا يرتفع وزول عند معرفة أسباب التنزيل التى يتبين منها أن الآية الأولى ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ نزلت فى ظروف خاصة تتعلق بقيام عداوة أو حرب بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب ، وأنها من ثم مخصصة بهذه الظروف وليست عامة مطلقة ، فى حين أن الآيتين الأخريتين تتضمنان أحكامًا عامة . كذلك نجد فى القرآن ﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة ٢ : ٤٧) ، وفيه : ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ (المائدة ٥ : ٢١)

ويعنى تفسير هاتين الآيتين على عموم الألفاظ تأييد الدعاوى العنصرية التى تزعم أن اليهود مفضلين على الناس بإطلاق ، وأن الله وهبهم أرض الميعاد (فلسطين) حتى الأبد . أما تفسيرهما وفقًا للظروف التاريخية وتبعًا لأسباب التنزيل فهو يعنى أن التفضيل والوعد بالأرض كان لقوم بنى إسرائيل ، وفى زمن معين ، مضى وانقضى .

قد يقال فى ذلك إن أسباب التنزيل غير واضحة أو غير مؤكدة ، غير أن هذا يدفع إلى البحث والتحرى عن حقيقة الأسباب ، لكنه لا يخول الحق فى أن يُستبدل بمنهاج صحيح للتفسير ، منهاج آخر يحدث البلبلة ويشيع الاضطراب ؛ يضاف إلى ذلك أن أغلب أسباب تنزيل الآيات وارد فى الآيات نفسها ، أو مستفاد

من السياق ، كما أن قوة ثبوت هذه الأسباب هو بذاته قوة ثبوت كل التراث الإسلامى ، بل إن بعض الأحاديث التى تشكل العقل الإسلامى ، ويرى البعض أنها تقيم فروضا دينية أو واجبات دينية ، لم ترد فى كتب الأحاديث المعتمدة وليس لها أصل ثابت أو أساس متين ، بدرجة ثبوت أو متانة ما يعرف عن أسباب التنزيل .

تبع هذا تمييز ضرورى بين الدين والسياسة . فالأعمال السياسية ، سواء صدرت عن الحكام أو من المعارضين ، أعمال بشر ، ليست معصومة ولا مقدسة ، قد تصح وتصدق وقد تخطىء وتزل . ولابد من تقييم أعمال السياسة وفقًا لهذا المعيارالدقيق ، لأن اعتبارها أعمالًا دينية يضفى العصمة والقداسة على الحكام فلا تجوز معارضتهم وتكون أى معارضة حرابة جزاؤها القتل ، أو الصلب أو النفى ، كما تكون أعمال المعارضة أعمالا معصومة ومقدسة تنتهى إلى تكفير الحكام وتكفير المجتمعات ، وهذا التخليط والتغليط هو الأساس الأول والسبب الرئيسى فى كل ما لحق وما يلحق المجتمعات الإسلامية من فتن واضطرابات وحروب وصراعات . ثم أدى التسلسل الواقعى والتتابع المنطقى إلى تطبيق هذا النظر على التاريخ الإسلامى السياسى للتدليل القاطع على أن مزج السياسة بالدين وخلط التحزب بالشريعة أدى إلى تحول الإسلام إلى أيديولوجيا سياسية وحروب دينية أوجدت مذهبًا حربيًا ، وأشعلت نيران العواطف وألهبت أتون المشاعر فسهلت انزلاقها إلى التطرف ويسرت

انحدارها إلى الإرهاب ؛ وهو عين ما نشكو منه حالا (حاليا) وندعو إلى إزالته دون أن نقبل الحل العملى والاجتهاد الصحيح من أجل هذه الغاية .

متى كان الأمر بهذا التحديد وذلك الوضوح لَم تنجرح العواطف من الحقيقة ولَم تنفجر المشاعر من الصواب ؟ هل يجوز أن نطوى نفوسنا على عواطف مريضة ترفض الحق ، وأن نطبق صدورنا على مشاعر مهيضة تأبى الصواب ؟ ذلك هو السؤال ، وفى الإجابة السليمة عليه حل كل مشاكل المسلمين .

obeikandl.com